٣

انتصر العلم المزيف لأننا نعانى من مرض فوبيا العلم!!

فوبيا العلم...لماذا يكره المصريون والعرب العلم؟

«معقول إحنا نكره العلم ونخاف منه ونشمت فيه؟!!، يا شيخ قول كلام غير ده، معقول وإحنا حضارتنا الفرعونية مهد العلم، بالعكس ده زى مانت شايف، الموبايل فى إيدين كل الناس، والدش فى كل بيت، وأطفالنا ماشاء الله بيلعبوا على الكمبيوتر زى العفاريت، عايز إيه أكتر من كده حب للعلم !!».

من المؤكد أن كثيراً من القراء بمجرد قراءة العنوان سيرفعون فى وجهى هذه الكلمات السابقة الساخرة من مبالغتى فى تشخيص حالة العداء العلمى، التى باتت تسكن خلايانا وعقولنا وتسبح مع كرات دمنا الحمراء، وأنا متوقع استنكارًا شديدًا لوصفى لها بالظاهرة والتأكيد على أنها مجرد حالات فردية لا تمثل تيارًا، وأن مصر بخير، وعقلها بخير، وهيئة بحثها العلمى بخير، وجامعاتها بخير، وباحثيها بخير..... إلى آخر سياسة كله تمام يافندم، وحزب كل شىء تحت السيطرة، وشعار بوس إيدك وش وضهر وده إحنا فى نعمة... وأحسن من غيرنا... وليس فى الإمكان أبدع مما كان.... إلى آخر هذه المسكنات، التى تخدر الألم ولا تعالج الورم!.

نحن أكثر شعوب الأرض استهلاكًا لمنجزات العلم، وفى نفس الوقت أكثر شعوب الأرض كراهية وعداء للمنهج العلمى والفكرى والإبداعى، الذى أفرز هذه التكنولوجيا، نعم نحن نستعمل الموبايل والدش والتليفزيون والكمبيوتر، ولكننا نرفض مرحلة ما قبل صناعة هذه الأشياء، كيف تشكلت فكرة هذه الاختراعات والاكتشافات؟، سقف الجرأة والتمرد والخيال اللامحدود، علامات الاستفهام، التى بلاخطوط حمراء، الفكر النقدى الذى لا يعترف بأسئلة مسموحة وأخرى مكبوحة، أو بآراء تعلن وأخرى تدفن، نحن نجيد الضغط على الأزرار،

وفى نفس الوقت الضغط على المبدعين، والضغط على المعارضين والمتمردين والمحلقين، والخارجين على النص والمغردين خارج السرب، ولا نجيد بل ولا نريد الضغط على أزرار خلايا الإبداع عندنا، لكى ينطلق مارد التقدم من قمقم الخرافة الذى يكبله، ويشد قاطرة مجتمع مشلول إلى الأمام.

نعم نحن نعانى من مرض فوبيا العلم، وإلا فما تفسير سيطرة الفكر الخرافى على حياتنا؟، وما هو سر تغلغل الأوهام والأساطير فى جنبات مجتمعنا ومؤسساتنا، حتى التى تحمل لافتة مؤسسة كذا العلمية أو فلان وعلان التكنولوجية، شعب أدمن الخرافة حتى النخاع، بل فى قمة الانبساط والانشكاح بأنه مضحوك ومنصوب عليه وغرقان فيها، حتى أذنيه ومضروب على قفاه بسببها وهو للأسف يطلب المزيد، ويقول كمان !!، مليارات تصرف على الدجل والأعمال والمندل والربط....

إلـخ، نصابـون يبيعـون ويروجـون لأعشـاب سـامة، ليسـت عليهـا أى رقابـة صيدليـة ويروجـون لهـا فـى فضائيـات، والنـاس تتهافـت عليهـا، ويجعلـون تجارهـا ملياردير ات، قوانيـن حيـاة أو مـوت مثـل قانـون زرع الأعضـاء تظـل فـى أدراج مجلـس الشـعب ربـع قـرن مـن الزمـان فـى حيـن تصـدر قوانيـن أخـرى فـى ربـع سـاعة، هسـتيريا طلـب فتـاوى فـى كل شـىء وأى شـىء، وسـحب سـلطة ومـكان مناقشـة القضايـا العلميـة مـن العلمـاء وسـاحات المعامـل إلـى الكهنـة وسـاحات أماكـن العبـادة، اعتـراف بـزواج إنـس مـن جـن، وأحاديـث عـن شـجر مبـروك وظهـور قديسـين ومسـاعدات ملائكـة فـى حـروب وزلازل وبراكيـن وعواصـف رسـائل غضـب مـن الله، وتجـار سـوبر ماركتـات، الإعجـاز العلمـى الذيـن يتاجـرون بالديـن وينتظـرون إنجـازات الغـرب حتـى ينسـبوها إلـى أنفسـهم ويقدمونهـا إلينـا فـى سـيلوفان دينـى، شـماتة فـى سـفن فضـاء غربيـة تسـقط وتحتـرق، واعتبـار أن هـذا السـقوط والاحتـراق تأديـب مـن الله عـز وجـل للبشـر المفترييـن مـن أهـل الغـرب، الذيـن يناطحـون الخالـق، عـز وجـل، ويتصـور علماؤهـم أنهـم يسـتطيعون تقليـد الإبـداع الإلهـى!، وشـماتة فـى أدويـة تفشـل فـى عـلاج أمـراض سـرطانية وإيـدز، وشـماتة فـى تجـارب هندسـة وراثيـة وعلاجـات جينيـة تفشـل فـى زيـادة محصـول أو استنسـاخ بنـى آدم أو عـلاج مـرض وراثـى عضـال !!، بـكاء وعويـل ونـدب علـى أيـام زمـان وسـب وقـذف لمنجـزات الحضـارة، التـى أفسـدتنا وبوظـت حياتنـا ودمـرت أولادنـا، الكهربـاء جعلـت أهـل الريـف يسـهرون، والـدش علـم أولادنـا الإباحيـة، والمبيـدات قتلـت مزروعاتنـا، والهندسـة

الوراثية أفسدت طعامنا، والموبايل دمر عواطفنا، والمواصلات لوثت هواءنا، والأدوية أنهكت أجسادنا... إلخ، باختصار حتى المنجزات الغربية نستعملها وندمنها ولا نستطيع الاستغناء عنها، وبرغم ذلك ندينها ونكرهها، وندينهم ونكرههم، يعنى لا طايقك ولا قادر على بعدك كما يقول المثل المصرى.

مرض فوبيا العلم وكراهيته، ليس مرضًا مصريًا فقط، ولكنه مرض عالمى، ولكن المرض المصرى والعربى مختلف عن المرض الغربى الأوروبى والأمريكى واليابانى، وحتى الصينى والماليزى، فمرضنا حتى الآن مرض شامل ومزمن يسرى فى كل خلايا الجسم ويستقر فى العقل أو المخ، الذى للأسف لا تتجدد خلاياه العصبية، أما مرضهم وكراهيتهم للعلم فهى عرض زائل سطحى، لا يؤثر فى مسار العلم، لايتسلل إلى العلماء فى معاملهم أو مدرجاتهم، وإن نجح فى التسلل فهم هناك يستطيعون حصاره؛ لأن تيار المنهج العلمى شديد وقوى، كراهيتنا للعلم نبض وحرارة تجعلنا محلك سر، أما كراهيتهم فهى مجرد صرخات فى الهواء لا تؤثر على مسيرة القافلة، التى تسير للأمام فى طريقها العلمى المرسوم، لا نستطيع أن نقول إن العلماء هناك فى الغرب لا يلقون بالاً للانتقادات حول مسار العلم، ولكنهم يعتبرون ما يحدث من تجاوزات علمية أو أضرار بحثية، هى بمثابة الأعراض الجانبية للدواء، لابد من تحملها من أجل مكاسب أكبر ومنافع أشمل وأعم، يبحثون لهذه الأعراض الجانبية عن حل، ولا يتخذون مثلنا موقفًا متطرفًا كارهًا للعلم،

نستطيع أن نقول إننا لدينا كراهية وموقف مبدئى من العلم، ولكن لديهم مجرد اعتراضات وليست كراهية وشماتة، والأمثلة كثيرة على الاعتراضات، التى نشأت فى الغرب كرد فعل للتقدم العلمى.

ذكر لنا د.أحمد مستجير فى كتابه «دفاع عن العلم»[1] بعضاً من هذه الاعتراضات الغربية، التى صاحبت مرحلة النهضة العلمية الأوروبية والأمريكية، والتى كانت لحسن حظهم مرحلة وعدت، وفترة ومرت بسلام، ولم تتحول عندهم كما تحولت عندنا إلى تكريس للسحر والشعوذة والتنجيم، من ضمن هذه الاعتراضات ما كتب ١٩٦٢ فى كتاب «الربيع الصامت» لراشيل كارسون، الذى هاجمت فيه المؤلفة المبيدات التى ستجعل ربيعنا صامتًا بلا طيور تغرد، وبعدها كثر الحديث عن ثقب الأوزون وظاهرة الصوبة، والمطر الحمضى وتآكل التنوع الحيوى، وتم توجيه الاتهام إلى الصناعة والتكنولوجيا، التى يغذيها العلماء، ومن هنا ظهر شعار العلماء غير جديرين بثقتنا، لقد أفسدوا الأرض أمنا الأرض، وذاع الخلط بين العلم والتكنولوجيا، ولو كان هذا الاتجاه قد انتصر لكنا قد أصبنا بالتشاؤم ورفض التقدم، كما أشار د.مستجير «التقدم يعنى التطلع إلى مستقبل يحيا فيه أبناؤنا وأحفادنا حياة أكثر سعادة وأكثر صحة، هو يعنى الأمل، فإذا رفضناه فلن تكون لدينا أهداف بعيدة المدى، لن نجد ما يستحق أن ندافع من أجله، هل يجوز لنا أن نسمح لأحد أن يجعلنا نخشى المستقبل؟».

١ الكتاب سلسلة إقرأ، فصل "دفاع عن العلم والعلماء" من صفحة ٢٤ إلى ٥٣

هذا السؤال مطروح على الأجيال القادمة، لابد ألا نصادر أحلامهم، نحن جيل سيحمل عصاه ويرحل، كتب عليه القدر أن يعيش فترة زمنية تعالت فيها أصوات الأصولية والتغييب فى المنطقة، ولكن علينا أن نبذر بذور الحلم للجيل القادم، وألا نخاف من المستقبل وصياغته العلمية بهذا الشكل، لأن الخوف من المستقبل يولد التشاؤم «الكثير من التنبؤات الشائعة، التى يطلقها أعداء العلم تحذرنا من أن المستقبل سيكون بالتأكيد أسوأ، ومن أن غطرسة العلماء من شأنها أن تقضى علينا، ليس من المستغرب إذن أن يتسبب هذا الخوف الذى ذاع فى انشغال بال الناس «هنا والآن»، سننهمك لنحظى من الحاضر بلذاته، ننشد الربح المادى السريع ونجرى وراء المتعة العابرة، ونجعل للثروة أعلى القيم، ينكفئ البعض على نفسه فى عدمية ذاهلة، ويرتد البعض يبحث عن ماض ذهبى جميل ولى، أو إلى فكرة فى الماضى عفا زمانها، فيقبلون بحكم الكهول والموتى، ويهيم آخرون فى يوتوبيا يأملون أن يقيموا مجتمعًا جديدًا لم يسبق أن كان له مثيل، مجتمعًا أبدًا لن يتحقق، ويدعى البعض أنهم يبحثون عن الحقيقة، عن معنى فى الطبيعة، يمكن أن يرتبطوا به ويتناغموا معه، فالحقيقة عندهم لايمكن إدراكها إلا بالحدس، لا بالعلم والعقلانية، وتهرب جماعة أخرى تنشد التطهر فلا تأكل الأطعمة الملوثة بما يسمى الكيماويات ولا تسمع من الموسيقى إلا خرير الجداول تثرثر فوق الأحجار، وصوت الريح فى الشجر يداعب الأوراق، وغناء الطير يشدو بألحان التزاوج !، ثم يتركون جميعاً المشاكل الحقيقية التى تواجه البشر تتفاقم بلا حل، فإذا مضينا فى هذه الحماقات

وسمحنا لمعارضى التقدم أن يحكموا قبضتهم، فسينزلق المجتمع، هذا الخائف، خارجًا فى رفق من التاريخ إلى عالم النسيان «[٢].

اللؤلؤ ليس سوى مجرد مرض فى المحارة !، والأعراض الجانبية للمنجزات العلمية هى مرحلة لابد أن نمر بها، حتى يتكون لؤلؤ العلم والحياة والتقدم والحضارة، والنغمة العالية المضادة للعلم، التى تحولت فى الآونة الأخيرة إلى أوركسترا زاعق وصاخب، صارت لها اليد العليا فى المجتمع، وما أزعجنى حقًا هو تحول كارهى العلم من مجرد أفراد إلى حزب وعصابات منظمة، ومن مجرد أصحاب نظرية أو رأى إلى مستفيدين و أصحاب بيزنس، وهذا ما لمسته بنفسى عن قرب خلال بعض المعارك التى خضتها ضد هؤلاء، وكان أشهرها معركة مافيا الأعشاب التى وصلت فيها التهديدات إلى أقصى مدى لها، ولولا أننى لا أريد أن أحول القضية إلى قضية شخصية فأهمشها وأنتقص منها، لكنت قد كتبت عن السيناريوهات الدراكولية، التى استعملتها عصابات مافيا العلاج بالأعشاب لتهديد كل من يجرؤ على الإقتراب من مملكتها وانتقاد أباطرتها، ولكن المهم أن هذه المعارك أشعرتنى بمدى خطورة استشراء هذا التيار المضاد للعلم والمروج للخرافة، خاصة أننى فى خضم هذه المعارك وجدت مؤيدين ومفتونين ومبهورين بهذا التيار ورموزه، بدرجة مدهشة تقترب من التأليه والتقديس، وكانت الحجج التى كان دراويش هذا الحزب يشهرونها فى وجهى بسيطة، ولامنطق لها ولاتستطيع قياسها، وبالتالى لا

٢ : المصدر السابق ص ٣١

تستطيع الرد عليها، عبارات غامضة من قبيل «دول ناس طيبين»..»دول بتوع ربنا»...»دول ناس مش عايزين يضرونا ولو ما نفعش دواهم بالتأكيد مش حيضر»...»إنتم حاقدين عليهم علشان شركات الأدوية بتشتغلوا لمصلحتها»....إلى آخر هذا الكلام، الذى لا يصمد أمام أى تحليل، والمحمل بكل أمراضنا المجتمعية من سذاجة تقييم الناس من خلال فاترياناتهم الطقوسية الشكلية، وتبنى نظرية المؤامرة، والتجارة بالدين وإستعماله كجواز سفر للمرور من خلال أى بوابة حتى ولو كانت بوابة جهنم، وهنا أيقنت أن التيار المعادى للعلم صار تيارًا منظمًا قويًا، أو باختصار هو أكبر حزب فى مصر والعالم العربى كله.

حاولت أن أفهم أنا شخصيًا سر جاذبية هذا التيار المضاد للعلم قبل أن أكتب لأقنع الآخرين بخطورته، فوجدت أن أفضل ما أفعله قبل أن أكتب أفكارًا مرتبة، أن أمارس ما يسمونه بالعصف الذهنى BRAIN STORMING، ولم أجد أفضل من د. زكى نجيب محمود أو بالأصح أفكار هذا الرجل العبقرى، الذى لم تقدره مصر حق قدره، لأمارس معه على الورق هذا العصف الذهنى غير المرتب، ولكنه بالتأكيد غير مرتبك، وقد اخترت د.زكى نجيب محمود لهذه التجربة لعدة أسباب منها ما هو شخصى ومنها ما هو موضوعى، والسبب الشخصى هو أن د. زكى له الفضل من خلال لقاء واحد فى بيته القابع بجوار السفارة الإسرائيلية عند كوبرى الجامعه فى تشكيلى العقلى النقدى، كان لقاء وحيدًا ولكنه كان علامة فارقة فى حياتى، كنت وقتها فى

كلية الطب أعانى من تعنت الجماعات الإسلامية لأى نشاط ثقافى أو فنى فى زمن عمادة د.هاشم فؤاد العاصفة لكلية الطب، كنت محبطًا أحس باللاجدوى مما أفعله، إقترحت على أصدقائى أن نجرى حوارًا مع د.زكى نجيب محمود، وننشره فى مجلة حائط بدلاً من المجلات، التى كلما علقتها مزقها رئيس اللجنة الثقافية بكلية الطب، وهو الذى أصبح فيما بعد قطبًا إخوانيًا كبيرًا فى نقابة الأطباء، زاد الزملاء من إحباطى عندما سخروا من اقتراحى بمبرر «هو الراجل فاضى يقابل شوية عيال !!»، ولكنى تجرأت وركبنى عناد طفولى متحديًا سخرية أصدقائى، وهاتفت د.زكى تليفونيًا فرد علىّ بصوته الهادئ المبحوح، الذى يحمل حكمة سقراط، امتص ارتباكى ووافق على الفور، ورضى الفيلسوف أن يقابل شوية عيال، وكانت جلسة إمتدت لأربع ساعات كاملة، سألنا وأجاب، أحسست أنه خلق لكى يكون محاضراً، تدفق أفكار، أمثلة توضيحية مبسطة لأعقد الفلسفات، انتقال سلس من موضوع لموضوع، والمهم أنها كانت جلسة دفاع عن العقل والعلم والمنهج العلمى فى التفكير، خرجت منها إنسانًا مختلفًا عما دخلت، مؤمنًا بأنه لا حل إلا بالعلم، ولا طوق نجاة إلا العلم.

(أما السبب الموضوعى فهو أن هذا الفيلسوف الكبير غرد كالبجعة، قبل أن تموت وكتب هذا المعنى المعبر عن إحباطه فى آخر كتبه، قضيته الكبرى كانت تحديد المصطلحات والتوفيق ما بين التراث والمعاصرة، ونشر المنهج العلمى فى التفكير، والمدهش أن تنبأ كزرقاء اليمامة بقدوم هذا التيار

المعادى للعلم والمروج للخرافة قبل أن يراه الكثيرون رؤى العين مجسدًا فى مافيا كاملة صارت تقود وطناً معمى العينين فى ساقية التخلف كقطيع مساق إلى حتفه أسفل جبل شاهق.

(تعالوا نجرب فى الصفحات التالية هذا الحوار المفترض مع اقتباسات من د. زكى نجيب محمود لنتحسس موضع أقدامنا من هذه القضية، العداء للعلم، ما هو سببه وما هو السبيل إلى علاجه؟.

حوار خيالى وعصف ذهنى مع د. زكى نجيب محمود

اختيار المفكر الكبير زكى نجيب محمود لإجراء هذا الحوار الإفتراضى مع مقتبسات من كتبه ليس ترفًا أو رفاهية، ولكنه ضرورة يحكمها أن هذا المفكر العظيم هو من المفكرين العرب القلائل، الذين نذروا حياتهم لقضية منهج التفكير العلمى، وإنقاذ وطنه من أسلوب التفكير المتخلف الغارق فى مشكلات الماضى، الرافض للالتحاق بركب الحضارة العالمية، ولأن كتابته كما قال عنها هى الكتابة الكشاف، وليست الكتابة المرآة فهو كما وصف نفسه يكتب بمنطق الطبيب وليس بمنطق بائع الخردوات، ولأنه نسيج متفرد من المفكرين العرب، الذى نهل من الثقافتين العربية والغربية بنفس العمق ونفس القناعة، وأيضًا سمحت له حياته الأكاديمية الطويلة أن يعدل من أفكاره وينوع من رؤاه ويصحح من أسلوبه، ولكن تم كل هذا فى إطار هدفه الرئيسى ومشروعه الفكرى احترام العقل والعلم.

سألت مفكرنا الكبير، وأنا أتأمل حالنا عندما نتعامل مع التراث، كأننا مشدودون بكرة حديدية مثل التى كانت تربط إلى أقدام المسجونين، وعيوننا تنظر إلى الخلف دوماً ونظن أننا ننطلق إلى الأمام، فنخبط ونتخبط، وأحياناً نمارس التمرين العسكرى الشهير الجرى فى المكان ونحن محلك سر لا نمارس إلا صفا وانتباه، ونتخيل أننا سنكسب الماراثون !، كيف نتعامل مع التراث؟

يجيب د.زكى نجيب:

- « التعامل مع التراث لابد وأن يكون محاكاة فى الموقف لا مادة للمشكلات، محاكاة فى النظر لا فى تفصيلات ما يقع عليه البصر «.
- « أستعير القيم، مثلما أستعير مسطرة كانت تقيس الورق لأقيس بها الآن قماش «
- «التراث ليس كنزاً للتبرك»
- « لابد أن نتشرب تراثنا حتى يتحول إلى ضمير «
- « كل منا هو دون كيخوته جديد، أجساد من ورق، ودماء من مداد، وأدمغة مشحونة بكلمات السابقين، لا لتكون مصدر إلهام، بل ليعيد عيشتها كرة أخرى «
- «نحن حفاظ علم لاعلماء «
- « قراءة الطبيعة مختلفة عندنا عنهم فى الغرب، مثلاً عندما

يكـون الموضـوع حركـة الكواكـب نرجـع نحـن للكتـب، هـم يخترعـون تليسـكوباً ليشـاهدوه «

- «الماضى هو ما نعلمه عنه «
- « إدراكنـا بدائـى مثـل سـكان الكهـف الذيـن أعطـوا ظهورهـم لفتحـة الخـروج لايـرون إلا ظـلالاً وانعكاسـات علـى الجـدار الداخلـى «
- « نقرأ القدماء نعم، ولكن لا لنكون عيالاً عليهم «
- «قـراءة الماضـى عندنـا كمـن يعتصـم بالجبـل لحمايتـه مـن الريح أو الطوفـان «
- «الحل هو تغيير أوتار القيثارة ليتغير النغم»
- «نحـن فـى الفكـر عارضـو أزيـاء لا نحـن ناسـجوها ولابائعوهـا «
- «فكرنـا هـو فكـر علـى فكـر نصبـه علـى أفكار الآخريـن وليس فكـراً علـى مشـكلات حيـة «
- «هـم يصبـون طاقتهـم العقليـة علـى الأشـياء، نحـن نصـب طاقتنـا علـى الأقـوال «
- « المفكر عندنا مجرد معلق أو شارح «
- الصـدق عندنـا هـو صـدق الاسـتدلال مـن الفكـرة الرئيسـية وليس صـدق تطبيـق الفكـرة الرئيسـية علـى الواقـع «

اقتباسات زكى نجيب محمود، بالرغم من أنها كتبت منذ أكثر من ربع قرن، فإنها معاصرة وكأنها تقرأ الواقع الآن، نحن بالفعل أستاذى العزيز ما زلنا نشرح الشروح، ونحشى الحواشى ونلخص الملخصات، نتشرنق داخل ذواتنا، كدودة تتغذى على الورق الأصفر القديم، أقصى ما نفعله من إنجاز، هو أن نعيد قراءة كتاب قديم فى الصيدلة والطب، وبدلاً من إستلهام منهجه البحثى ونظرته النقدية إلى ما سبقه، نجد أن قراء هذه الكتب ينقشون ما فيها وكأنها نهاية المآل والمنال ومنتهى الإنجاز، فيتمسكون بعلاجات البردقوش وحبة البركة؛ لأنها آتية من بطون هذه الكتب الصفراء، ينبهرون بالقديم لمجرد أنه قديم، ويكرهون الجديد لمجرد إتيانه من بلاد الغرب، وعندما ينتبه هؤلاء إلى أنهم غارقون حتى آذانهم فى منجزات هذا الغرب الذى يكرهونه، بل ويستعملون منجزاته العلمية فى ترويج الخرافة، الإنترنت لمواقع الجن والإنس والحجامه وعلاج الحسد، والموبايل لاستقبال رسائل تنظيم القاعدة وإنزال نغمات التواشيح والتفاخر بالموبايل الإسلامى المصنوع فى بلاد البوذيين !، والدش لإنشاء فضائيات أدوية بول الإبل وأعشاب الضعف الجنسى، يستخدمون الميكروفون اليابانى والكاميرا الألمانى والسبحة الصينى والصالون الإيطالى وأجهزة الصوت الأمريكانى، ليصرخوا فى الأستوديو بحناجر هادرة» الله قد سخر لنا منجزات الغرب كالدواب نستعملها لمصلحتنا».

(سألت أستاذى، الذى كان صوته يقطر حزناً عن العلم، والمنهج العلمى، والفرق بين اليقين العلمى واليقين الدينى، وهل هناك تضاد أو حرب بين العلم والدين؟، ولماذا هذه الحرب الوهمية المفتعلة بين العلم والدين دائماً ما تنشأ فى مجتمعنا المصرى والعربى فقط؟!!

أجاب د. زكى نجيب محمود بأسى ومرارة من أفنى سبعين سنة من حياته فى دق نواقيس الخطر فى صحراء الصمت، والصراخ فى آذان الصم، فى مسرح ظن جماهيره تنتبه إلى صراخه، فى حين أنها كانت مشغولة بوضع القطن فى آذانهم وقزقزة لب الخرافة والشعوذة المريحة الكسولة المخدرة على مقاعد ريش النعام وهم لا يعرفون أن أسفلها قنابل نابالم.

- « نحن نتعامل مع اللفظ على أنه الشيء نفسه، ولا نعرف أن كلمة الخبز ليست هى الخبز المأكول، اللغة ليست لذاتها، نحن تعاملنا معها كمن ظل يردد الطائرة ستقلع فى التاسعة إلى أن فاتته».
- الواقع ليس علماً، ولكن هو موضوع مطروح للعلم»
- « الدين قائم فى نصوصه المحددة، ثم يأتى المؤمنون – التدين - ثم علوم الدين التى تحلل واقع النصوص»
- «الدين ليس علماً كما يقولون، بل يقام عليه العلم»
- العلامة الفارقة والفاصلة بين ما هو علم وبين ما هو غير علم هى قابلية الحكم بالصواب والخطأ، فإذا كان القول يمكن

أن يوصف بأنه صواب أو خطأ فإنه يدرج فى مجال المعرفة العلمية مثل قولنا (الأرض فيها بترول)، أما إذا كان القول مما يستحيل وصفه بالصواب أو الخطأ إلا على قائله الوحيد، الذى يزعم له الصدق دون أن يستطيع الآخرون مراجعته مثل القول (هذه الأرض محببة إلى نفسى).

- « الفيصل الأهم فى الفكرة العلمية هى قابليتها للبطلان أو التكذيب، بمعنى أن يحاول الباحثون إبطالها بكل ما وسعهم من تجارب، فإذا صمدت لهذه المحاولات كانت فكرة صحيحة مؤقتاً، إلى أن يظهر فى مستقبل قريب أو بعيد بطلانها».
- « لكى نحكم على فكرة بأنها صحيحة علمياً أو خاطئة لا يكون بالرجوع إلى مقياس قائم خارجها – الجدار طوله أربعة أمتار لابد أن يكون معنا مقاس المتر»
- «فى العلوم الطبيعية نجعل إمكان تطبيق نتائجنا، التى نصل إليها على الواقع الفعلى مقياس القبول، أما فى مجموعة العلوم الرياضية أو الدين وسيلتنا إلى الحكم بالصحة أو الخطأ هو الرجوع للمسلمات الأولى، أى أن مقياسنا هو الإستدلال».
- «العلم علم بمنهجه لا بموضوعه، سواء صخور المقطم أو دودة القطن أو مسرح شوقى أو موقف المصرى من الموت»
- «العلوم يغير بها الإنسان بيئته، الثقافة يغير بها الإنسان نفسه «
- « الفرق بين العقل والإيمان، أن ما يميز العقل هو اعتماده على وسيط – من مقدمة إلى نتيجه – أما الإيمان فيلمع مباشرة بلاوسيط»

- « هل نستطيع أن نبنى أى مشروع إستراتيجى بدون الاستعانة بأجانب؟»
- « الفارق بين رؤية العلم والخرافة، أن الأول يدرك الرابطة السببية العلمية، والثانية عدم إدراكها أو عدم البحث عنها «

هل ظل زكى نجيب محمود أسير الصراخ، بدون أن يقدم الحل ويكتب روشتة العلاج؟، هذا ما سنعرفه.

روشتة علاج لأمراض العقل العربى

ناديت تكراراً ومراراً بإعادة طبع جميع كتب المفكر العظيم الراحل د. زكى نجيب محمود، وناديت بتدريس ولو كتاب واحد فى المرحلة الثانوية، وراهنت على أن دراسة هذا الكتاب بوعى ستكون أول معاول هدم التطرف والتفكير الخرافى الذى يسود حياتنا، ولذلك سعدت بخروج عدة كتب قليلة من ضمن كتبه إلى النور فى مشروع مكتبة الأسرة، وفى انتظار تحقيق الحلم بطبع الأعمال الكاملة لفيلسوف التنوير المصرى، وابن رشد العصر الحديث د. زكى نجيب محمود، وإلى أن يتحقق سنقرأ سوياً مشروع تجديد وعلاج العقل العربى فى أهم روشتة كتبها طبيب العقل لتكون الشفاء من أمراض التخلف الفكرى والهزال العقلى والتطرف الدينى.

السؤال الذى يفرض نفسه الآن، والذى أسمعه يتردد على شفاه القراء: لماذا زكى نجيب الآن؟ ولماذا هو الشخص المؤهل لكتابة هذه الروشتة؟، وإجابة السؤال الأول هو أننى أعتقد أننا فى مرحلة مفصلية من تاريخنا، نطرح على أنفسنا سؤال هاملت الخالد: نكون أو لا نكون، نقف فى مفترق طرق بجانب علامة إرشادية تشير إلى سكة اللى يروح ما يرجعش، نحن على شفا الحفرة ونسير بجد وحماس يقترب من الهرولة إلى حيث هذه السكة الملعونة، الكل يتقدم من حولنا، ونحن نطبق تمرين الجيش المشهور «المشى فى المكان»، كنا نجرى فى «التراك» مع الأمم والحضارات الأخرى، ولكننا وللأسف الشديد أصبحنا خارج هذا التراك، أصبحنا ننظر بعين الحسرة والندم إلى التقدم الحادث حولنا، وأحياناً ننظر بشماتة وإحباط وعدوانية إلى صانعى هذا التقدم، ونعزى أنفسنا بأن تقدمهم هو مطية لنا، وأن حريتهم فوضى، وديمقراطيتهم زيف، وتقدمهم مادى بحت، إنها مخدرات نتناولها بإرادتنا، لكى تزيل عنا ألم الإحباط ووجع الاكتئاب، ولهذا كان علينا أن نبحث عن مخرج فكرى وثقافى لأزمتنا الحضارية، نعرف من خلاله وبصراحة؛ لماذا أصبح العرب والمسلمون صداع العالم المزمن؟، ولماذا تخلفنا عن الركب بعد أن كنا فى الصدارة؟، لماذا أصبح كل حديثنا عن الماضى التليد والتراث المجيد، مهملين تماماً حديث الحاضر وإستشراف المستقبل؟، لهذا توجهنا إلى الطبيب، الذى يحمل كل المؤهلات اللازمة للتشخيص والعلاج.

د. زكى نجيب محمود مر بتجربة ثرية، وهى أنه فى شبابه كان رافضاً لقراءة التراث العربى بما يستحقه من اهتمام، وكان كما يحكى عن نفسه مبهوراً ومنجذباً للإنجاز الغربى الأوروبى والأمريكى، ولكنه وبعد مرحلة كبيرة من البحث والمعاناة أيقن أن كثيراً من التراث العربى يستحق القراءة والتأمل، ولكن كان السؤال المهم الذى طرحه فى روشتته العلاجية لأمراض العقل العربى وعلاته المزمنة، هو ماذا نقرأ ونأخذ من تراث الأسلاف؟.

يقول د. زكى نجيب: إن ما يجب أخذه من التراث هو ما نستطيع تطبيقه اليوم عملياً، فيضاف إلى الطرائق الجديدة المستحدثة، فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة أنجح منها، كان لابد من إطراح الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضى، الذى لا يعنى به إلا المؤرخون، ويؤكد على أن ثقافة الأقدمين هى طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا فى معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذى نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً، فهو الذى نتركه غير آسفين.

تشخيص الداء هو الخطوة الأولى لعلاجه ود. زكى نجيب يحاول فى البداية أن يضع يديه على موطن الورم الخبيث فى تراثنا العربى لنعرف من خلال منظاره السديد النافذ ما هى قيود ومعوقات الفكر العربى التراثى؟

القيد الأول هو أن صاحب السلطان هو صاحب الرأى وليس صاحب رأى :

يشبه فيلسوفنا الكبير تعاملنا مع التراث كمن يخزن إرثه فى الخزائن، ثم يطوف بتلك الخزائن المغلقة عابداً، ويقول إن الإرث ليس فى حد ذاته حياة بل هو وسيلة حياة، ويؤكد على أن أساس البلاء هو أن يجتمع السيف والرأى معاً كما رسم شاعرنا أبو العلاء هذا المعنى فى قوله:

جلوا صارماً وتلوا باطلاً وقالوا صدقنا فقلنا نعم

فقد كان الأمير يجلس ورأيه فى رأسه، والسياف إلى جواره، وحكاية الخليفة المهدى والشاعر بشار بن برد، خير دليل على تلك المأساة، فقد أحضر المهدى بشاراً، وإلى جانبه السياف واتهمه بالزندقة فى أحد أشعاره، فأعلن بشار توبته، فاستنكر المهدى وقال لبشار ألست أنت القائل :

والشيخ لا يترك عاداته، حتى يوارى فى ثرى رمسه ثم غافله السياف وقطع رأسه، وهكذا حتى التوبة لم تنقذ الشاعر.

وكذلك قصة الحلاج مع صاحب الرأى والسيف، فكما لم تنفع بشار توبته، لم ينفع الحلاج كتمانه حين جادله الوزير، ولم يصل معه إلى نتيجة فقال أخيراً للحلاج: ما أحوجك إلى أدب !، وكان هذا الأدب هو عقاب الحلاج بجلده ألف جلدة ثم قطع يديه ثم إحراقه بالنار. وتأتى حكاية الأديب الحكيم ابن المقفع مع سفيان بن معاوية،

لكى تثبت لنا أن أكبر معوقات التراث هى احتكار الرأى والسيف، فقد كان بين الاثنين مناوشات كلامية، ولكن الفرق أن أحدهما بضاعته الكتابة والآخر هو نائب الخليفة فى البصرة، فدس معاوية عند الخليفة المنصور حتى ظفر منه بالإذن بقتل ابن المقفع، ولكن معاوية أبى إلا أن يتفنن فى قتله، فهدته عبقريته إلى أن يحمى تنوراً لكى يحرق فيه فريسته، ولكنه أخذ يقطع من جسده قطعة بعد قطعة، وهو حى ويلقى بشرائحه إلى التنور ليرى المسكين أطرافه كيف تقطع قبل أن تحرق؟!.

تأتى أكبر المحن الفكرية فى تاريخ الإسلام لتضع النقط على الحروف، وتغلق الدائرة على قصة القمع فى التراث، والتى تشكل أكبر قيد وأعلى سور يمنعنا من التقدم، المحنة هى محنة خلق القرآن وقد كان طرفاها مفكر أعزل، وهو الفقيه أحمد بن حنبل وسلطان مسلح، وهو الخليفة المأمون، الأول يقول إن القرآن أزلى والثانى يقول إنه حادث بمعنى أنه لم يوجد إلا وقت نزوله، وكان المأمون يصف أصحاب الرأى الأول بأنهم «من حشو الرعية، وسفلة العامة»، وهكذا أصبح السلطان خصماً وحكماً فى نفس الوقت، وحوكم ابن حنبل، وطالت المناظرات واستمرت حتى بعد وفاة المأمون فى عصر المعتصم، وانتهت بالطبع بانتصار رأى السلطان، وجلد ابن حنبل بالسياط حتى قارب على الموت، وجيء بجراح إليه فى بيته ليقطع لحماً ميتاً من جسده، وهكذا كان الرأى مع السيف أخطر محنة فى تراثنا، فإذا تطاول النجيل ليقترب من قامة النخيل تم جزه وقطع رؤوسه حتى لا تتساوى الرؤوس !.

القيد الثانى : سلطان الماضى على الحاضر :

القديم لـه رهبـة وسـحر وجـلال، ولكـن أن يتحـول الإعجـاب إلـى تقديـس تلـك هـى المشـكلة، وسـر النهضـة الأوروبيـة كانـت فـى تحـول النـاس مـن إدمـان قـراءة كتـب الأقدميـن إلـى كتـاب الطبيعـة المفتـوح، فقـد كان الكاتـب قديمـاً لا يحتـاج إلـى الخـروج مـن الديـر أو الصومعـة أو الجامـع، فقـد كان كل جهـده أن يشـرح ويلخـص، فهـو اجتـرار مـن بعـد اجتـرار مـن بعـد اجتـرار، وشـرح للشـرح وتعليـق علـى التعليـق، وحتـى الآن أصبـح العلـم كلـه متأثـراً بتلـك النظـرة عبـارة عـن تلقيـن فـى تلقيـن وهـذه هـى الكارثـة.

القيد الثالث : تعطيل القوانين الطبيعية بالكرامات :

أكبـر القيـود، التـى تعطـل مسـيرتنا وتكبلهـا أننـا نميـل ميـلاً شـديداً إلـى أن تكـون قوانيـن الطبيعـة لعبـة فـى أيـدى نفـر مـن أصحـاب القلـوب الطيبـة الورعـة، فيكفـى أن يكـون الفـرد «صالحـاً» لينصـرف صلاحـه لا إلـى شـق التـرع وبنـاء الجسـور ورصـف الطـرق، ولكـن ينصـرف صلاحـه إلـى تعطيـل قوانيـن الطبيعـة، ونحـن منـذ زمـن طويـل نمقـت العقـل ونتمنـى للقلـب السـيادة ولـو اقتصـر الأمـر علـى العامـة لمـا أخذنـا العجـب ولكنـه وللأسـف الشـديد يمتـد إلـى العلمـاء أنفسـهم!! إن هـؤلاء العلمـاء، وهـم فـى معاملهـم لا يقبلـون إلا أن تكـون قوانيـن العلـم حاسـمة صارمـة، فمـا الـذى يصيبهـم إذا مـا تركـوا معاملهـم وعـادوا إلـى منازلهـم؟،

أيتركـون عقولهـم مـع معاطفهـم البيضـاء فـى حجـرات المعامـل، ليعـودوا متنعميـن فـى ظـل الخرافـة النـدى الطـرى الممتـع اللذيـذ؟!!.

[إننـا مـا زلنـا فـى مرحلـة السـحر لا العلـم كمـا يقـول د. زكـى نجيـب محمـود، فالسـحر والعلـم كلاهمـا محاولـة لـرد الظواهـر إلـى عللهـا وأسـبابها، غيـر أن السـاحر لا يقلقـه أن يـرد الظاهـرة إلـى علـة غيبيـة ليـس فـى وسـع الإنسـان أن يستحدثها أو يسـيطر عليهـا، وأمـا العالـم فهـو لا يقـر عينـاً إلا إذا رد الظاهـرة المحسوسـة إلـى علـة محسوسـة كذلـك، السـاحر والعالـم يقفـان إلـى جانـب مريـض، الأول يربـط الظاهـرة المرضيـة بالجـن والعفاريـت، والثانـى بجرثومـة معينـة، فبينمـا يصبـح الطريـق مفتوحـاُ أمـام العالـم للبحـث عن وسـيلة يقتـل بهـا الجراثيـم، تـرى الطريـق مغلقًـا أمـام السـاحر ولا يجـد وسـيلة لمغالبـة العفاريـت إلا بالبخـور والأحجبـة، فنحـن بهـذا المنهـج أو بالأصـح اللامنهـج مـا زلنـا فـى مرحلـة السـحر لـم نبرحهـا بعـد.

[تعامـل المفكـر الفيلسـوف الكبيـر د. زكـى نجيـب محمـود مـع أمـراض الفكـر العربـى، كمـا يتعامـل الطبيـب الجـراح مـع الأورام الخبيثـة، التـى تنمـو علـى حسـاب الجسـد وتسـتنزف صحتـه، فالإسـتئصال فـى أغلـب الأحيـان يكـون علاجـاً، مهمـا كانـت فداحـة الثمـن علـى قلـوب وعقـول مـن ألفـوا وتعـودوا علـى تلـك البديهيـات، فصدمتهـم هـى عـلاج لكـى يفيقـوا مـن الخـدر اللذيـذ، والتـراث أحيانـاً يكـون مخـدراً، وأحيانـاً أخـرى محفـزاً، فمـاذا نختـار منـه وكيـف نتعامـل معـه؟، هـذا هـو أخطـر الأسـئلة، التـى طرحهـا د. زكـى نجيـب فـى روشـتته العلاجيـة.

يعنى فيلسوفنا الراحل بدقة الألفاظ ومدى تحديدها القاطع، ويقول إن كلمات مثل الثقافة والتراث وغيرها لو طرحت خالية من التفصيلات والعناصر، أى مجردة ستقود الإنسان إلى ضيق أفق وتعصب أعمى ونظر محدود، وضرب مثلاً بالفن الذى عندما نطرحه كفكرة مجردة، قد لا تجد إنساناً يعارضك، ولكن عندما تحشو هذا التجريد بتفاصيل كأن تقول الفن التكعيبى مثلاً فهنا ينقص عدد الموافقين، ولو حددت أكثر تفاصيل داخل هذا الفن سينفض عنك عدد أكثر وهكذا، وهكذا فى التعامل مع التراث فعندما تطرحه كفكرة مجردة، قد يقول لك الكثيرون فلنلقه فى البحر أو فى النار، ولكن عندما تذكر تفاصيلاً ستجد عدد المعارضين فى تناقص، ومن هذا المنطلق يطرح د. زكى نجيب سؤالاً مفصلياً مهما، وهو متى يعيش الإنسان العربى ثقافته ولا يتلفظ بها فقط؟ ومتى يكون لها كيان مستقل؟ وكيف نجعلها سارية فى عقولنا ووجداننا سريان الزيت فى الزيتونة؟!.

الثقافة فى رأى مفكرنا الكبير ممارسة، وليست تنظيراً، فنحن نعيش ثقافتنا فى كل تفصيلات حياتنا مثل الميلاد والموت والزواج وطريقة إكرام الضيف... إلخ، يحدث ذلك حين تكون الثقافة منسابة فى عروق الناس مع دمائهم، فتصبح حياتهم هى ثقافتهم وثقافتهم هى حياتهم، هنا تستحق اسم ثقافة، ولا تستحقها حين تنسلخ عن الحياة ليضطلع بها محترفون يطلقون على أنفسهم إسم مثقفين، ولا يحدث هذا الانسلاخ إلا حين تكون الثقافة وافدة إلى الناس من الخارج لا منبثقة من نفوسهم، وعندنا أهل

اليونـان القدامـى أكبـر مثـل علـى ذلـك فثقافتهـم كانـت حياتهـم بالفعل، وتحـدث المشـكلات، حيـن تحـدث الفجـوة وتتسـع بيـن الثقافـة الجاريـة مـن جهـة ومواقـف جديـدة مـن جهـة أخـرى تتطلبهـا حيـاة جديـدة لـم يألفهـا القـوم، وضـرب مثـالاً علـى ذلـك بفكـرة الحريـة؛ فالفـرد عندنـا فـى تراثنـا إمـا يكـون حـراً أو عبـداً، ولكـن الآن الحاصـل أن هنـاك مواطنيـن أحـرار يتسـع أمامهـم معنـى الحريـة ليشـمل الجوانـب السياسـية وطريقـة الانتخابـات... إلـخ، وهـذه المعانـى للحريـة غيـر موجـودة فـى تراثنـا فعلـى طـول التاريـخ العربـى القديـم نـدر أن زالـت حكومـة؛ لأن الشـعب المحكوم لم يعـد يريدها، ولا تزحزح إلا بغدر أو قتـل أو سـجن أو تآمـر، فـلا الشـعب اختـار ولا هـو يملـك حـق العزل. كمـا أن الحريـة السياسـية غيـر موجـودة فـى تراثنـا العربـى، فالحريـة الاجتماعيـة هـى أيضـاً غائبـة، وتفرعـت مـن مشـكلة الحريـة مشـكلات أخطـر وأعمـق مثـل مشـكلة المـرأة، فالمـرأة العربيـة الجديـدة إنسـانة أخـرى غيـر امـرأة الأمـس، ومـع ذلـك، فقـد وجـدت نفسـها فـى مجـالات العـرف والتقليـد والتشـريع حبيسـة أوضـاع وضعـت لسـالفاتها مـن بنـات الحريـم والجـوارى، فهـل يعقـل أن يقـال لعالمـة الفيزيـاء والوزيـرة والمحاميـة والطبيبـة..... إلـخ مـا كان يقـال لسـالفتها مـن قوامـة الرجـل والمثنـى والثـلاث والربـاع..... إلـخ، وتظـل المـرأة بذلـك بيـن قطبيـن نقيضيـن؛ الأول: تقاليـد تضعهـا موضعـاً لـم يعـد يصلـح لهـا، والثانـى: مشـاركة فـى نشـاط العصـر وثقافتـه، فأيـن عسـاها تجـد منافـذ الخـلاص؟.

من أكبر المشكلات فى حياتنا الفكرية، والتى لا تقل عن مشكلة الحرية خطورة، هى مشكلة الدخول فى عصر العلم والصناعة، فما يستحق كلمة معرفة الآن يختلف تماماً عن الماضى، فالمعرفة الآن هى أجهزة بالغة الدقة لقياس الانتقال والسرعة وضبط الاتجاهات والصوت والضوء وتحريك الصواريخ.... إلخ، باختصار إنتقل إنسان هذا العصر من معرفة اللفظ لمعرفة الأداء، وعبقرية العرب كانت دائماً فى لسانها، ولم تكن اللغة العربية مجرد أداة للثقافة، ولكنها كانت الثقافة نفسها، فأنت مثقف عربى عظيم إذا أجدت الإلمام بمفردات اللغة ومترادفاتها ونحوها وصرفها، فإذا جاء علينا عصر يتعامل مع أجهزة وأنابيب ومعامل ومصانع أسقط فى أيدينا؛ لأن بضاعتنا هى نحو وصرف ومترادفات، وهى جميعاً لا تقدر على ضبط إبرة فى جهاز، ومشكلتنا الآن هى كيف نتحول من ثقافة اللفظ إلى ثقافة العلم والتقنية والصناعة؟، ويصبح سؤالنا الأساسى، الذى لابد من تكراره هو أى الأفكار، التى يريدوننا أن نبتعثها من تراث الأسلاف، يمكن أن نعلق به الرجاء؟، وهل صحيح أننا واجدون فى أفكار أسلافنا بالأمس ما يمكن أن ينير لنا الطريق؟، لقد كانت أفكارهم وليدة مشكلاتهم، فهل تكون مشكلاتنا هى نفسها مشكلاتهم، بحيث نهتدى بحكمهتم فى إقتراح الحلول؟.

يجيبنا الغزالى على هذا السؤال فى كتابه «أصناف الطالبين» بعبارة يقول د. زكى نجيب: أنه يود لهذه العبارة أن تتحول إلى أجراس تقرع فى آذاننا، حتى يصحو النائم ويتنبه

الغافل، والعبارة تقول «لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته»، وهذا هو الفيصل، لا نستطيع أن نحل مشكلاتنا الحالية بمجرد فتح كتب التراث.

يحلل د. زكى نجيب أزمة الكاتب والمفكر العربى المعاصر بأنه واقع بين نارين لا يدرى كيف ينجو بنفسه منهما، فهو إذا ما نظر إلى الأمام وجد ثقافة تعصف عليه بأعاصيرها من الغرب بكل ما تحمله من علوم وفنون ونظم سياسية، فيحس وكأنه الغريب المتسول، فإن أخذته الكبرياء الرافضة وأشاح بوجهه، ولوى عنقه إلى الوراء ليفتح خزانات آبائه، راجياً أن يجد فيها مراده، حتى يستولى عليه القلق، لأنه إنما فتح تلك الخزانات وبين يديه مشكلات يعانيها ويريد لها الحلول، ولم يفتحها ليجعل من رفوفها متاحف يملأ بمرأى نفائسها المعروضة ناظريه، ويستعير مفكرنا الفيلسوف عبارة بليغة ذات دلالة لأبى حيان التوحيدى من كتاب «الإشارات الإلهية» يقول فيها: «أما حالى فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تؤاتنى لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب على فأكون من العاملين لها...، فإلى متى نعبد الصنم بعد الصنم، كأننا حمر أو نعم (أنعام)؟، إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس فى قلوبنا؟، إلى متى ندعى الصدق والكذب شعارنا ودثارنا؟، إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها؟، إلى متى نبتلع السموم، ونحن نظن أن الشفاء فيها؟»، ويقول د. زكى نجيب إن ما يقوله التوحيدى ما زال ينطبق على عصرنا، خاصة حين وصف

علماء عصره فقال علمهم لفظ وروايتهم حفظ، ويستكمل مفكرنا ويأخذ الخيط من التوحيدى فيصف ثقافتنا وكثيراً من مفكرينا بالفصام، أوهامهم فى ناحية ووقائع دنياهم فى ناحية أخرى. يرد علينا المعارضون لهذه الأفكار، التى عرضناها بقولهم لنا: «الحل هو أن نتمسك بمبادئنا»، ولكن هل تكفى كلمة مبادئ لحل مشكلاتنا المستعصية؟، وهل هذه الكلمة واضحة المعنى فى عقولنا إلى هذا الحد؟.

أطلق زكى نجيب محمود تغريدة البجعة الأخيرة قبل أن يموت، كان تغريده صراخاً، وكانت كلماته قرعاً للأجراس، لعل من أصابهم صمم يستيقظون، كان يحلم ألا يضيع صراخه فى البرية، وتتبخر أحلامه فى الهواء، كان يعرف أن وطنه الكبير يحمل بذور القوة بداخل أرضه، وجنين التقدم فى رحمه الخصب، ولكنه كان حزيناً؛ لأن هذه البذور تذبل وزهورها تنحنى لرياح الخرافة، وكان مهموماً لأن الجنين قذفه الرحم مجهضاً معوقاً، وأعتقد الآن أن روحه تطل من عليائها علينا وتنادى عودوا للعقل تصحوا.

أهم ما كان يشغل مفكرنا الكبير هو دقة الألفاظ، ومن أهم هذه الألفاظ كلمة «مبادئ» ويقول إنها كلمة خادعة، فقد تعود الناس أن يقرنوها بالقيم الخلقية حتى كادت أن تكون مرادفاً لها، والأهم أن الرجل العظيم فى نظر الناس، هو الرجل الثابت على مبادئه بدون مناقشة فحوى هذه المبادئ ومحتواها هل هو جيد أم ردىء؟، ولبيان فكرته وضح د. زكى الفرق ما بين الفرض والحقيقة، فالفرض يحتمل الجدل والتأويل، وأن يكون

مبدأ مثل فرض أن المثلث ا ب ج مثلث متساوى الأضلاع، وهذا ينتمى إلى عالم الرياضيات، أما الحقيقة فهى لا تقبل الجدل ولا تقبل أن تكون مبدأ مثل أن سرعة الضوء كذا ميل فى الثانية... إلخ، وما ينتمى لعالم الرياضيات، التى تحتمل المبادئ هو عالم السياسة والديانات والفلسفة.... إلخ، ففى الديانات تكون الأحكام الفقهية صواباً من وجهة نظر كل دين فهى مبدأه، وفى علم السياسة هناك فيلسوف مثل «هوبز» يقول: إن حق الحكم للأقوى، والآخر مثل «لوك» يقول: إن حق الحكم للشعب، كلاهما ينطلق من مبدأ، وكلاهما يعتقد أن مبدأه هو الصحيح، والمبدأ كما يقول فيلسوفنا الكبير هو مجرد فرض وليس حقيقة، وهذا الفرض لا يوصف بالصواب أو الخطأ، وإنما تكون المفاضلة على أساس النفع للإنسان، من هذا الكلام نصل إلى أن المبادئ هى مجرد فروض لا حقائق، وهو يفرضها لتخدم أغراضه، ومن الممكن تبديلها، إن لم تفلح فى خدمته.

من المبادئ، التى لابد من الثورة عليها أن رأى السلطان هو سلطان الآراء، وأيضاً مبدأ أن يكون مدار التعليم هو إعادة الموروث وتحليله وشرحه، فكان العالم قديماً هو من ازداد إلماماً بالتراث، وقدرة على فهمه وشرحه وتحليله وإعرابه، فيحفظ التلميذ عن الشيخ، وهكذا أصبح العلم هو علم ما فى الكتب لا علم الطبيعة وظواهرها، وانتقلت هذه النظرة التراثية إلى مجتمعنا المعاصر، وحتى كلياتنا العملية تجرى على هذا المبدأ، وهو أن يحفظ التلميذ عن الشيخ وليس ثمة من فرق بعيد بين

أن يكون المحفوظ هو ألفية بن مالك أو كتاباً فى الكهرباء، لأن المدار فى الحالتين، هو الحفظ الذى يمكن التلميذ من التسميع أمام شيخه، ولذلك لا يحق لنا أن نتساءل لماذا تأخرنا وتقدم الغرب؟، ببساطة لأن المبدأ القديم فى العلم، لم يغيره مبدأ جديد.

التجديد من وجهة نظر د. زكى نجيب محمود لا يبدأ إلا حين تحدث ثورة فى اللغة، فاللغة كانت للإيحاء لا للدلالة، وفى المجتمعات العلمية اللغة أداة ترمز للمحسوس أكثر منها عدسات تنفذ إلى اللانهاية والخلود، وهذه الثورة اللغوية واكبت الثورة السياسية الفرنسية، وبحث العلماء الفرنسيون فى اللغة من حيث أنها أكبر من أداة تعبير فهى جزء لا يتجزأ من عملية التفكير ذاتها، ويتفق د. زكى نجيب مع المستشرق جاك بيرك حين قال عن اللغة العربية: «إن اللغة العربية كما نراها فى التراث الأدبى، وكما لا تزال تستخدم عند كثيرين ممن يظنون أنهم يكتبون أدباً توشك ألا تنتمى إلى دنيا الناس، فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين مجرى الحياة العملية، ولذلك لم يجد المتكلمون بالعربية مفراً لهم من أن يخلقوا – إلى جانب الفصحى – لغات عامية يباشرون بها شئون حياتهم اليومية»، فبالفعل لم تكن الفصحى فى تراثنا الأدبى أداة للاتصال بمشكلات العالم الأرضى، ولا وسيلة للإتصال بحياة الناس وأزماتهم، بل كانت مجالاً للفن الذى يهوم فى السماء، وانظر إلى مدرس اللغة العربية كيف يحاسب تلميذه فى موضوع التعبير أو الإنشاء؟، فلو طلب من التلميذ أن يكتب خطاباً إلى أبيه فى الريف، وكتب التلميذ بطريقة حياتية أن

يبعث له أبوه ببعض السمن والعيش فسيعطيه المدرس صفراً، لأنه يعلمهم أكليشيهات، فعنده ما يقال فى مدح الشىء أو فى ذم الشىء.... إلخ، وما على التلميذ إلا أن يدخل مصنع الأكليشيهات وينقش ما نسميه نحن الإسطمبات، إن اللغة عندنا تكتب لذاتها، وأطلب منك سماع الطلبة فى المدارس فى حصص المطالعة فهم يقرأون بطريقة خطابية وكأنهم يدخلون عالماً مسحوراً لا مألوفاً.

لكى نتحضر، لابد لنا من أن ننتقل من حضارة اللفظ إلى حضارة الأداء، لابد أن نتحول فعصر التحول هو عصرنا، فسفينة الحضارة تتحرك بين شطين، ولو غفلنا عن هذه الحقيقة الأولية زاغت أبصارنا إلى ماضٍ تركناه، أو شطح بنا الخيال إلى مستقبل مأمول لا نملك بعد وسائله، فإذا كانت الأولى التوت أعناقنا، وتحولنا إلى أصنام من الملح، وإذا كانت الثانية أصابنا كساح كالذى يصيب الطفل حين يرغمه أبواه على المشى قبل أن تستقيم ساقاه وتقويا، وقاعدة مرحلة التحول ألا تكون هناك قاعدة جامدة تسد علينا طرق المغامرة والخلق، فالجديد لم يتحدد بعد حتى نقن القوانين ونقعد القواعد، ليس العيب فى أن نراجع، وإنما العيب فى أن نقف عند ما كان قائماً وكأنه الأزل الذى لا يبيد.

مفتاح الصواب اليوم، هو أن نبدأ بهضم هذه الفكرة هضماً جيداً، فكرة أننا نتحول، وإذن فنحن فى تغير، ولا حكم لماضٍ على آتٍ، لابد أن نعانى فالفارق بعيد بين شجرة الورد، وهي تعتمل من باطنها بكل أليافها وقشورها وجذوعها وأوراقها لكى تخلق فى آخر الأمر وردة تكون هى ثمرة المعاناة، وبين من يجيء عابراً

على الطريق فيقطف الوردة جاهزة يشمها ثم يضعها فى عروة سترته، إنهم هناك يشربون المر لكى يفرزوا حضارة، ونحن هنا نأتى على الجاهز لنقرأ تركيبة هذا المر من على خارج الزجاجة!! فالمهم أن ننتقل من حضارة الكلمة لحضارة الآلة، فالآلة ليست كتلة من الحديد، وإنما هى علم مجسد، ومهارة مركزة، ولابد ألا تكون الثقافة شاملة، وليست مهنة مثل مهنة غزل النسيج مثلاً، ولابد أن نتخلص من المثقف الكاهن الذى بضاعته كلام فى كلام.

الكارثة أن حياة العربى فى لغته، أكثر مما فى بيئته، والعربى يحيا عالمين؛ عالم الطبيعة وعالم اللغة والرموز، إن العربى لا يحيا فى الأشياء، بل يحيا معها، ويطالب د. زكى بلغة قبيحة تضاف إلى اللغة الفاتنة!!، لغة مباشرة تبحث عن الدلالة لا الإيحاء، إنه حلم فيلسوفنا الكبير أن نتكلم لغة تلتصق بالحياة، لا أن تترنم بالمجهول السحرى، ولذلك لابد لنا من فلسفة جديدة.

(فى أمسيته الثقافية استضاف الشاعر الرقيق فاروق شوشة فيلسوفنا الكبير د. زكى نجيب محمود قبل وفاته بقليل، ويومها تحول صوت الفيلسوف الواهن المبحوح إلى لطمات ولكمات فى وجوهنا جميعاً، أحسست من خلال تهدج صوته أنه يعرف أن الرحيل قد اقترب، وأن أشد ما يؤلمه هو أن بذور أفكاره لم تجد أرضاً صالحة لها فى المجتمع العربى، كان يائساً محبطاً مكتئباً، كنت ألمح عينيه من خلف نظارته السميكة مغرورقة بدموع الندم المزمن، وهمست لنفسى أمام التليفزيون: هل هى جنازة العقل العربى؟، هل هو إعلان بفوز الخرافة بالضربة القاضية

فى حلبة الفكر؟، شاركته يومها البكاء وأتمنى ألا أشاركه اليأس. نستخدم كلمة فلسفة فى حياتنا كثيراً، وحتى البرامج التليفزيونية، التى تستضيف أرباع الموهوبين تسمع فيها كلمة فلسفتى فى الحياة، وفلسفتى فى المجتمع... إلخ، ونتيجة لهذا الخلط قرر د. زكى نجيب أن يعرف كلمة فلسفة وأن يمسح عنها غبار الجهل والخلط.

هناك ثلاثة مستويات للإدراك، المستوى الأول هو الصلة المباشرة مع الأشياء، نراها ونلمسها ونسمعها، ينزل علينا المطر فندركه بالمستوى الأول، أما المستوى الثانى فهو عندما يأتى عالم ليفسر لنا سبب نزول هذا المطر، ويبحث الظاهرة، ويستخلص منها قوانين علمية عامة تنطبق على كل حالات المطر، أينما حدثت وفى أى وقت حدثت، ولكن هل يقف الأمر عند هذا المستوى الثانى، بالطبع لا، فقد نرى أنفسنا بإزاء قواعد عامة تضبط سلوكنا، أو بإزاء مجموعة من قوانين العلوم المختلفة من ضوء وصوت وكهرباء... إلخ، فنسأل أنفسنا: هل هذه القواعد السلوكية وتلك القوانين العلمية مستقلة عن بعضها، أم أن بينها مبادئ مشتركة، أو مبدأ واحد شامل؟، هذه العملية الفكرية هى ما نطلق عليه فلسفة، وكما عرفها د. زكى نجيب محمود هى مستوى من التعميم، يحاول أن يرد مفردات القيم السلوكية والمعارف والعلوم على اختلافها إلى قمة واحدة، ومهمة الفلسفة كما يريد منها فيلسوفنا الكبير هى استخراج ما هو مضمر فى أحكامنا وأفكارنا ومعتقداتنا، لننقلها من حالة الكمون إلى العلن، وما أكثر ما تجد إنساناً راضياً عن أفكاره وتصرفاته، حتى إذا ما استخرجت ما

تنطوى عليه تلك الأفكار والتصرفات من أسس خافية، فزع هذا الشخص واستنكر، لأنه لم يكن يحفر تحت أفكاره وتصرفاته.

هنا يحضرنى مثال لتقريب معنى الفلسفة أكثر من القارئ، ما هو الفرق بين التاريخ وفلسفة التاريخ؟، أظن أن إجابة هذا السؤال ستجعل المعانى الصعبة للفلسفة فى متناول اليد، فالتاريخ يروى ما قد حدث، وأما فلسفته فتحفر وراء هذا الذى حدث، لعلها تقع على المبدأ المحرك، هل هو الفرد مثلاً؟، أم صراع الطبقات؟، وهلم جرا، ولكن هل هناك بالفعل فلسفة تحكمنا لنتعرف من خلالها على طريقة تفكيرنا؟

فلسفتنا تعانى من ثنائية حادة وفصل واضح بين السماء والأرض، وليس هناك أفضل من الأدب والفن لمعرفة الفرق بين فلسفتنا وفلسفتهم، فجمال الفن عند غيرنا هو فى تشكيل اللون أو تشكيل الصوت أو تشكيل الحجر تشكيلات تمتع الحواس أولاً وقبل كل شىء آخر، وأما الفن عندنا فهو فى هندسة تشكيلاته، هندسة يطرب لها الذهن من وراء الحاسة المدركة، وكذلك الأدب والشعر كان مرماه الحكمة الموجزة، ويرسم النماذج المطلقة المثلى، فإذا وصف الشاعر العربى الجواد، فهو يصف الجواد كما ينبغى أن يكون لا كما هو كائن، ولكن الأدب الغربى اهتم بالمسرحية والرواية أولاً، أى ما يختلج حقيقة فى النفس البشرية من صراع، فالفرق هو فرق تعبير بين ما هو واقعى وبين ما هو خيالى.

ولادة جديدة للمواطن العربى هذا هو ما يريده ويتمناه د. زكى نجيب محمود، ومن هذا المنطلق ينتقد التاريخ العربى

فـى الثلاثـة قـرون الماضيـة فهـو مـن وجهـة نظـره سـحابة واحـدة دكنـاء، لفـت فـى دخانهـا أفـراد النـاس، فباتـوا وكأنهـم عجينـة بشـرية واحـدة، لا فـرق فيهـا بيـن قطعـة وقطعـة، كمـاء البحـر تـذوق طعمـه كلـه إذا وضعـت منـه علـى لسـانك قطـرة، والمشـكلة عندنـا أن مخـاض الـولادة الجديـدة للمواطـن العربـى، قـد طـال أكثـر مـن الـلازم، وأصبحـت المجتمعـات العربيـة خليطًـا عجيبًـا مـن البشـر، والمدهـش أنـك لـن تحتـاج إلـى آلـة الزمـن لكـى تذهـب مـن عصـر إلـى عصـر، فيكفـى مجـرد تمشـية مـن منـزل إلـى منـزل مجـاور لتجـد أنـك قـد انتقلـت مـن العصـر الجاهلـى إلـى أواخـر القـرن العشـرين، فنحـن نعيـش كل الأزمنـة فـى نفـس الوقـت !.

لابـد للمواطـن العربـى، لكـى يولـد مـن جديـد أن يتنـازل عـن أشـياء ويكتسـب أشـياء، لابـد أن يقتنـع بـأن الإطـار لا يغنـى عـن الصـورة، لابـد أن نغيـر مفاهيـم كثيـرة مـن ضمنهـا، أن لصاحـب السـلطان أن يريـد وعلـى النـاس أن يطيعـوا، الكلمـة عندنـا لصاحـب القـوة، والقـول النافـذ لصاحـب الجـاه، وإننـا فـى المجتمعـات العربيـة نخـدع أنفسـنا عبثـاً، إذا ظننـا أن النظـم الديمقراطيـة، التـى قـد نصطنعهـا تكفـل لنـا الديمقراطيـة محتـوى ومضمونـاً، فالوعـاء وحـده لا يكفـل لـك نـوع الشـراب، بالفعـل المواطنـون سـواء أمـام القضـاء، ولكنهـم ليسـوا متسـاوين فـى أن تصـل أصواتهـم لمسـامع القضـاة، فالقانـون فـى المجتمعـات العربيـة يسـن لمـن لا يسـتطيع عصيانـه !.

لابـد أن نسـأل أيضـاً: كيـف حـدث الحـدث لا أن نسـأل مـن أحدثـه؟، لابـد أن يكـون قـوام الأخـلاق السـعادة لا الواجـب،

لابد أن نتخلى عن مرض الازدواجية والشكلية، فما دمت فى بلاد العرب فحافظ على الشكل المقبول، هكذا تكون قد أديت واجبك بغض النظر عما ينطوى عليه هذا الشكل من جوهر الفعل نفسه، فاظهر كأنك حر تكن حراً، واظهر كأنك غنى تكون غنياً.... وتعيش دوماً فى كأنك إلى أن تموت.

لكى نولد من جديد علينا أن نجمع بين قيد العلم وانطلاقة الحرية، فبالعلم تتشابه المجتمعات وبالحرية تختلف، وإذا كان العربى متخلفاً عن عصره، فذلك لأنه لاعلماً اكتسب ولا فناً معبراً أنشأ، فإذا حققنا علماً واقعياً وفناً ذاتياً، هنا سنكون ولدنا من جديد.

(التعامل مع تراثنا، كما يقول فيلسوفنا الكبير د. زكى نجيب، لابد أن يكون تحقيقه بداية الطريق لا نهايته، ولابد أيضاً أن نكف عن السخرية من العلم فلا نلوى الشفاه امتعاضاً عند هبوط الإنسان على القمر، ولا نهز أكتافنا سخرية عند زرع القلب، وكأن ما يفعلونه كفراً، ولابد أن نستحضر كلمة العالم القديم، الذى سئل لماذا يكثر من الشك فأجاب: دفاعاً عن اليقين، فالعلم منهج قبل أن يكون نتيجة، وحكم العلم يختلف عن الهوى بأنه لا يتعدد بتعدد الأشخاص، العلم ولا طريق إلا العلم، ورحمك الله يا فيلسوفنا العظيم، فقد قرعت الأجراس فى مجتمع يعانى من الصمم، فهل تم العلاج ونفعت الروشتة؟، للأسف لا، فقد أصبحنا فى مظاهرة صاخبة تعادى العلم، صرنا مجتمعاً مريضاً بفوبيا العلم، وكانت أهم الأسباب الخالقة لهذا الذعر من العلم هو حالة العداء المفتعلة ما بين العلم والدين، وهو عداء غير موجود إلا فى أذهاننا نحن فقط.